الفقراء يفقدون ثرواتهم

قصة بقلم علي بدور

في حر الصيف اللاهب يطيب لبعض سائقي الباصات ان يتأخروا .. فاذا كان الانتظار تحت قرص الشمس ، فان دقيقة واحدة يتأخر فيها الباص يحسبها المرء ساعة كاملة .

وجدت نفسي انتظر مع الواقفين . كان الى جانبي رجل قروي وامرأته . كانت المرأة تحمل طفلا ناحلا في ثياب ممزقة قذرة ، واحسست ان الام تحتضن الطفل باشفاق جريح وتحاول قدر ما تستطيع أن تحميه من وهج الشمس باتخاذها من ظهرها ورأسها وقاء له .

واقبل الباص يتهادى . ووقف لحظات ريثما استطاع المنتظرون ان يصعدوا .. ووجدت نفسي داخل الباص في احد المقاعد الخلفية المتقابلة ، بينما احتل المقعد المقابل ، ذلك القروي وزوجته التي حضنت طفلها بصمت ثقيل كان يرتسم على محياها مع شيء من القلق المتوتر والطفل صامت قد استعاض عن البكاء او الحركة بالتنفس الذي كان يبدو بطيئا من تحت الاغطية القذرة .

امتدت يد الام بعفوية الى طرف الغطاء الذي كان يحجب وجه الطفل ورفعته عنه فبان وجه بشري لم يبق فيه الا الجلد والعظم متخذا بذلك شكلا منفرا كاد يشبه وجه القردة لبروز وجنتيه وانخفاض فكيه ، وضيق جبهته ، فكأنه وجه من الجص حرص صانعه ان يشوهه قدر ما يستطيع . وكانت عيناه مغمضتين ، وفتحتا انفه مسدودتين تماما بالاوساخ ، وفمه يفتح بصعوبة للتنفس . وعندما رفعته امه قليلا عن حضنها بانت رقبته مثل القصبة المجوفة الرقيقة اليابسة ، ولمع لونه الاصفر عندما انعكست اشعة الشمس عليه ، كما بانت ساقاه وهما تتدليان وتتأرجحان في الهواء كساقي لعبة تقطعت حبالها الداخلية فبدتا مشلولتين تماما .

اعترتني هزة من الخوف وانا أنظر الى الطفل .. وبت مترددا في ادامة النظر اليه والى وجهه بصورة خاصة ، او الانصراف عنه بالمرة.. لان شكله كان غريبا ولافتا للنظر بشكل لا يمكن لصورته هذه ان تغيب من الذاكرة مهما توالى بعدها من صور تتفاوت جمالا أو بشاعة .. وخطرت لي وانا أحدق فيه من جديد خواطر غريبة ، ولكنها كانت محصورة بين حدي الموت والحياة .. ان الحياة جميلة ولا شك وقد لا يحس الاطفال بجمالها الا اذا كبروا .. اما هذا الطفل المريض فماذا يستطيع ان يتذوق من حلاوة الحياة .. بل ماذا يستطيع ان يتذوق من مرارتها اذا شاء ؟ انه مريض ويتألم ولكنه عاجز تماما عن التعبير حتى عن مشاعره هذه .. ها هوذا يتنفس بصعوبة . وقد يكون الان ظامئا ولكنه لا يقدر ان يطلب الماء او حتى يتململ .. واعتراني ضعف حقيقي من ذلك النوع الذي تولده نظرة ذات معنى الى حياة انسانية تتعذب وتتلاشى شيئا فشيئا بين أحضان الفناء ، ولا يستطيع احد من الناس مهما كانت قدرته ان يفعل شيئا يحول بينها وبين ذلك العذاب المقيت .

حدقت في وجه الاب فوجدته ينظر الى طفله بين آن وآخر بعينين قلقتين . وتفحصت تقاطيع وجهه فوجدتها تشبه تقاطيع وجه الطفل ، وان كانت قد أخذت شكلها النهائي وامتلأت لحما .. كانت عينا الاب مدورتين معبرتين قد امتلأتا ضياء .. ولكن هذا الضياء كان ينطفىء عندما كان الاب يحدق في وجه الطفل . أما عينا الام فكانتا ساهمتين في طفلها ، وكانتا رغم جمودهما تشعان حنانا وحبا . وكان وجه الاب دائم الانفعال ، فكأنه يتكلم لغة صعبة الفهم ، وكان بصره يشخص بعض الوقت في زجاجة الدواء التي حملها بيده . وكنت اذا تعبت في التحديق في الوجوه البادية أمامي أسترحت عند وجه الام الذي كان يجسد لي الامل . فقد كان يعكس عدا مظاهر الارهاق والتعب أحلامها في أن يعيش طفلها ويغدو شابا ...

انشغل الاب لحظات مع الجابي . فدفع له ثمن التذكرتين ، ورمق الجابي وجه الطفل وهو يقبض من آبيه قيمة التذكرتين فقطب وجهه لانه ـ كما خيل الي ـ نظر في وجه ما ، دون ان يأخذ قيمة نظرته .. لقد كانت نظرة مجانية لا لزوم لها أنفقها هدرا فسببت له بعض الازعاج .. فقال ناصحا :

ـ استروا وجه الطفل .. ان الذباب يزعجه .

قالها وهو يجوزهم الي .. وابتسم ابتسامة ماكرة تعبر عن قرفه مما يصعد الى الباص من أناس دأبهم مخالفة الاوامر الصحية وعدم العناية بمظهرهم الاجتماعي .. وتمليت وجه الجابي فبدا لي معبرا عن قوة مادية أفقدتها الارقام وعدم التعامل مع أناس من وسط معين كل ظلال الروح الرقيقة .. وتأكدت انه لا يقصد شيئا مما قاله لانه كان يتحرك كآلة ناطقة .. قد اعتادت الحركة والنفخ في الصفارة عند كل موقف وتوديع النازلين واستقبال الصاعدين .. بعين زجاجية .. ولسان من مطاط .

عدت الى وجه الطفل ، بعد تلك الجولة المتعبة في وجه الجابي ، فوجدت الذباب يتوزعه وبخاصة عينيه اللتين غطاهما القذر ، وفتحتي أنفه اللتين سدتا سدا محكما .. والفم الذي ستره اللعاب فبدا كالمستنقع .. وكان الذباب رغم يد الام التي قامت بدور المروحة لا يكاد يغادر وجه الطفل حتى يعود وبكثرة ملحوظة ، بحيث كان للطفل عينان وأنف وفم من الذباب .

وفجأة ، وفيما كان الطفل ساكنا وأمه تحضنه برعاية ، والاب يحنو عليه بنظراته من آن لآخر ، والباص يغذ الجري في طريقه المرسومة ، بدأ الطفل يتنفس بصعوبة كأن اختناقا يولد في رئتيه .. حتى ان فتحتي أنفه كانتا تطلقان عبر تنفسهما بالونين صغيرين من المواد المخاطية مصحوبين ببعض الاوساخ التي سدت فتحتي الانف .. كما تجلت الاقذار الطينية التي كانت تطمر الاجفان والعينين بفعل الدموع التي كانت تنهمر منهما .. وطارت عدة ذبابات عن الفم بعد أن أخذت شفتاه تنفرجان لتكشفا عن كهف لا نهاية له .. وبان اللسان كأنه الخيط المبتل .. وأخذت الام تمسح ذلك كله بطرف من الغطاء القذر .. والاب يعاونها بعينيه القلقتين وزجاجة الدواء تنتقل من يد الى يد دون توقف . وظل الطفل يتعرض للنوبة دون ان يستطيع البكاء أو الكلام أو حتى أن يفتح عينيه .. لقد كان كل شيء مغلقا وباحكام شديد وبصورة نافذة في حياة هذا الطفل التي كانت تضمحل شيئا فشيئا .

ولاول مرة في حياتي أشهد شبح الموت مخيما فوق وجه انساني وأشهد عاطفة الام تحنو عليه وكأنها تريد أن تعطيه من حياتها لتمنع عنه تلك النهاية الاليمة . وكانت الام تحول عينيها عنه الى زوجها تسأله بهما المعونة .. ولكن الاب بدا عاجزا بالمرة.. لقد شل تفكيره.. وكذلك الام .. ولكن بقيت لها عاطفة الامومة ، تلك العاطفة الغريزية

التي أخذت تتصرف بها فكأنها العقل المدبر .. ورغم مظاهر الارتباك والقلق فقد أخذت الام تمسح بطرف من الغطاء القذر دموع العينين وفضلات فتحتي الانف ، والكثير من اللعاب ، في الوقت الذي ازدادت فيه حركة التنفس كأن الطفل كان يختنق من الداخل .. مما دعا الاب لان يعاون الام هذه المرة ، ويضع يديه حول كتفي الطفل .. وكانت عضلات وجهه كلها تتقلص كأنه في حالة دفاع عن النفس ضد عدو كمن في جوف الطفل .. وها هو يخرج على دفعات من عينيه ومن فتحتي أنفه سائلا مخاطيا .. ومن فمه لعابا .. وهو رغم ذلك لا يدري ما يفعله !

كان الباص لا يزال يغذ الجري .. والركاب يتصببون عرقا ، والحر أشد ما يكون عليه لظى . وعند كل موقف كان بعض الركاب ينزلون وبعضهم يصعدون . والجابي لا ينظر الا بحساب ، حتى اذا انتهى عمله عاد الى جانب السائق يتبرد من نافذة مفتوحة . وكانت هذه الآلية المتكررة في صعود ونزول الركاب واختلاف المظاهر والاشكال ، تصطدم بأزمة الطفل الصغير الذي لم ير النور بعد ولكنه ها هو يعاود المسير الى الظلمة العابسة .. وكان وجوم ثقيل يربض فوق صدري ، لانني كنت أريد أن أشارك هذه العائلة ، ولكنني لا أدري ماذا أستطيع أن أصنع .. ان الحياة ليست دائما في جانب الفرح والبهجة والسعادة .. انها أحيانا مع التعاسة والشقاء والنكبات ، وارادة الانسان قد تظل عاجزة عن محو كلمة سوداء عن جبين انسان ناصع البياض !

وتابعت الام اهتمامها بالطفل الذي كان يكثر من تنفسه الشديد المتوتر وهو يزفر حياته على دفعات من عينيه وأنفه وفمه .. ولم يلبث أن همد وسكن فجأة بصورة تشبه انقطاع التيار الكهربائي وانطفاء النور بعد ذلك مباشرة .. وحدقت الام في وجه زوجها بنظرة خرساء وكأنها كانت تقول له بعينيها :

ـ وهل مات ؟

وتصرف الاب والام معا تصرفا حيوانيا .. فلم ينطقا بكلمة .. لقد عقدت لسانيهما المفاجأة .. واكتفى الاب بأن مد يده الى الغطاء القذر وسحبه الى أعلى حاجبا به وجه الطفل في الوقت الذي رمق فيه زجاجة الدواء بنظرة عجلى ثم وضعها في جيبه بينما الام نظرت حولها فشاهدت بعض الركاب ينظرون اليها واجمين صامتين . خيل الى أنها أرادت أن تصرخ ، فلم تطاوعها حنجرتها وخانها صوتها .. وتدفق فجأة الصراخ المخنوق من عينيها دموعا غزيرة كانت تتساقط فوق الغطاء القذر فتحدث فيه بقعا مبتلة صغيرة ، سرعان ما كانت تكبر كنقطة الزيت الساقطة فوق صفحة ماء هادئة ، وعادت تحضن الطفل الميت الى صدرها بحركات غريزية متشنجة خرساء ، كما حاول الاب أن يبكي فلم يستطع .. وان كان قد تمخط كثيرا بطرف منديله الذي كان يسر رأسه الحليق .. وأخذ يتحدث الى زوجه بهدوء طالبا أن تكف عن البكاء وهو يقول لها :

ـ ان مرضه قديم .. والموت راحة له !

وأجابته الاجابة الوحيدة التي لم تقل بعدها شيئا :

ـ ولكنه مات !

كانت الام بين الفترة والفترة تعيد كشف الغطاء عن وجه طفلها الميت فيبين لها بصمته الابدي ووجهه الذي اختلطت فيه الاقذار الفائضة عن ينابيع الوجه الثلاثة ، ممثلا للموت عندما يتجسد في وجه طفل أنهى احتضاره ومات . وكانت الام تصمت قليلا لتتكلم بدموعها .. بينما الاب قد كف عن التحديق في الطفل .. وأخذ يتأمل ببلاهة وجوه الركاب من حوله .. تلك الوجوه الشمعية التي لم تستطع أن تنطق بكلمة واحدة .. لعلها كانت منصرفة الى مشكلاتها الخاصة الصعبة التي كانت تشبه لصعوبتها وتعقيداتها ، فكرة الموت نفسها وقد غدت لغزا لا حل له .. ولكن برغم ذلك فقد ربطتني بهذه العائلة التي فقدت أملها وشعرت بمشاركة وجدانية عميقة .. وتساءلت فيما بيني وبين نفسي : لعلهما فقيران معدمان ، بل هما كذلك ، والطفل رغم مرضه وهزاله كان كل ثروتهما في الحياه .. أليست ثروة الفقراء هي أولادهم ؟.. وهم لا يشعرون بتعاستهم وبؤسهم الا اذا حرموا من نعمة الاطفال .. والانسان مهما كان معدما فانه يحس بغناه الانساني عندما يساهم في انجاب طفل .. ولكن ماذا يعتري الفقراء عندما يفقدون ثرواتهم ؟ ووجدتني عاجزا عن الجواب على هذا السؤال .

كان الاب رغم ما به من أحزان يحاول أن يبدو طبيعيا أمام الركاب .. حتى ان الجابي مر من أمامه وعاد الى جانب السائق دون أن يشعر بشيء .. لقد كانت الام تبكي وهي مطرقة الرأس وكان الاب جامد النظرات مندهشا لما ألم به .. وكانت عيناه تعبران عن اعتذاره للركاب الذين شاهدوا احتضار الطفل .. وخيل الي انه كان يود لو مات طفله في المنزل ، وليس في الباص ، اذن لعرف كيف يتصرف دون أن يخشى عيون الاخرين !

حاول الاب أن يعزي نفسه .. فأخرج علبة الدخان من جيبه ، وأخذ يلف لفافه بين يديه .. وفي الوقت الذي كان يعد فيه لفافته ليدخنها كان الجابي يغادر مكانه الذي اتخذه الى جانب السائق . فمر بالام وهي تحتضن طفلها الميت ودموعها توشك أن تجمد في عينيها والغطاء يستر جثة الطفل العظمية ، والذباب أوشك أن يتفرق بعدما حجب الغطاء عنه منابع الرزق . ولم يدر الجابي وهو يتفقد المقاعد الخلفية ما حل بالطفل الذي طلب الى أبويه أن يحجبا وجهه عن الذباب ، وهو يقصد أن يحجب وجهه القبيح عن عينيه الزجاجيتين .

تناول الاب علبة الثقاب من جيبه بعدما أعاد علبة الدخان الى موضعها وحمل بأصبعه لفافته التي حشاها جهده الى شفتيه وهم بأن يشعلها .. ولكن الجابي استدار نصف دورة فشاهده وهو يسحب أول نفس من اللفافة بعدما أشعلها بعود الثقاب ، ثم نفخ الدخان بقوة مما جعل الركاب في الباص يشعرون باثر الدخان عليهم وعلى أنفاسهم في ذلك الجو الخانق .. وأقبل الجابي ، وهو يتحداه بعينين نافذتين تقدحان شررا وغيظا وقال له :

ـ ألا تعرف القراءة؟ أنظر امامك .. انك تخالف أوامر المؤسسة.

ولكن الاب لم يجبه .. لقد كان يسحب النفس الثاني من لفافته ، وكأنه يستعيد راحته التي فقدها بموت الطفل ، ولكنه بعد أن نفخ دخان النفس الثاني قال له :

ـ عفوك يا سيدي .. انني لا أعرف القراءة .. اقرأ أنت لي ماذا تقول المؤسسة ؟

فأجاب الجابي بحنق عظيم :

ـ ممنوع التدخين !!

وابتسمت لهذه المفارقة ، وكذلك فعل بعض الركاب الذين شاهدوا ما حل بالاب الذي تجرأ وخالف تعليمات المؤسسة .. ولكن الاب ظل صامتا ، الا انه رمق طفله الميت وهو تحت الغطاء بنظرة أسى ، ثم ألقى بلفافته من النافذة .. وتطلع في وجه الجابي لحظة ثم قال له بلهجة رقيقة :

ـ عفوك يا سيدي .. ان ابني مات .

ولكن الجابي لم يسمع اعتذاره هذا .. لانه كان قد غادره الى مكانه المعهود جانب السائق يتبرد بالهواء المنعش .. فبدا الاب وكأنه يعتذر لنفسه .

ووقف الباص .. وأبصرت منزلي يطل علي .. فنزلت .. ولكنني لم أسع الى المنزل . لقد وقفت أرقب الباص وهو يتحرك من جديد ، حاملا العديد من الاحياء .. وجثة طفل صغير ...

ورفعت رأسي الى السماء .. فلم أبصر غير قرص الشمس وهو يلتهب .. وبدأت أسعى الى منزلي ببطء .. لقد كان ظهري ينوء بهموم ثقيلة ، ولكنها ليست بأثقل من هموم العائلة التي تبددت من بين يديها ثروة العمر الوحيدة !

حلب — علي بدور